القصائد

بقلم الدكتور احمد كمال زكي

***

نحن ندعو الى ان يقرأ الشعر ...

وشرح الشعر او تحليله – في رأينا – وسيلة الى قراءته ، وليس مؤامرة يقصد بها قتله .ولقد كنا اعتدنا الا نقرب القصيدة العمودية بأي نوع من انواع المناقشة ما لم تكن بلاغية تتناول اصول الصناعة اللفظية ، وكان وضوحها المفرط يعفينا دائما من الالتفات الى قيمة التجربة التي تتضمنها . الا ان شعر اليوم وقد ارتبط بروح العصر – فغارق طور البداوة والرومانسية – يحتاج الى اكثر مما عولجت به قصيدة الامس ، بحيث يصبح علينا ان نتسلح باكثر اسباب المعرفة – ومنها الفلسفة – من اجل ان نجعل شعر اليوم يقرأ ، ومن اجل ان نتبين بعد قراءته التجربة .

اقول ذلك وبين يدي قصائد « الاداب » التي نشرت في عدد مايو سنة ١٩٦٤ ، ومع حرصي الكامل على التزام الموضوعية في نقدها فانني لم انجح كثيرا في ان اجعل اغلبها يقرأ . وعدم النجاح في حد ذاته تسليم بصعوبة تلك القصائد ، ولكنه لا يعني قط ان اصحابها مزيفون ، بل على العكس لقد كنت اجابه منهم بانطباعات صادقة . وكان واحد كفواز عيد يفتنني بالمعية ميزت انتاجه على نحو حاولت ان اقيمه من قبل ، غير انني احسست ان في ابياته ما يحول دون تلقيها تلقيا كاملا .

ومن ناحية اخرى لحظت ان استغلال الاساطير والفولكلور كله لم يكن من العمق بحيث يمنع من ان تنوء القصائد بمثل ذلك التصنع الذي ورثناه عن الاولين . وتردد الشعر من ثم عند هذا وذاك – الا قليلا – في ضبابية لم تستطع ان تخفي الارتباك في الاسلوب ، ولا الاغراق في الاصالة . وكان يبدو لي ان الشاعر المعاصر مليء الرأس بما يصرفه عن التلقائية العاقلة ، بمعنى انه كان يشعر بعقله اكثر مما كان يفكر بقلبه .

ان مواهب الشعراء على ما كشفت عنه محاولاتي لنقدها نقدا موضوعيا لم تسفر الا عن ان قصائدهم لم تكن – في مجموعها – انتاجا متكاملا بقدر ما كانت تصويرا لرؤي ميتافيزيقية غامضة ، وللحكم استثناء ارجو ان يبين عند التفصيل !

قصيدة الراوي :

ما زال الصديق عدنان الراوي مرتبطا ارتباطا تاريخيا بالتعبير التقليدي ، ولقد اراني محتاجا الى من ينبهني الى انه في قصيدته « عندما يغيب حامل السهام » يشجب التقليد ، ولكنني لا افتأ اصر على انه لم يفعل فيه اكثر مما فعل في حدود تقليدياته . فهو لا يزال بعيدا عن الحركة الشعرية الجديدة في ابعادها الانسانية واشكالها المتحررة ، ومجرد تخليه عن التنسيق البيتي لا ينقله قط من مرحلة الى مرحلة . لقد عمل عدنان الراوي سنين طويلة في حقل ضمن فيه ان يكون لاستعداده الجماهيري وضخامة نبرته تأثير ايجابي علينا ، واخشي ان يفقد هذه الخاصة لو تفنى بمثل ما صدر عنه – نوعا وشكلا – في قصيدته « عندما يغيب حامل السهام » .

والقصيدة بعد هذا جميلة ، بل اجمل كثيرا مما كتب قبل . والتجربة المرة – تجربة فراق زوجة وابنة له – من الاشياء التي لا تزال بعيدة عن الدائرة ، غير انه استطاع ان يفيض بانطباعات تصويرية رقيقة جاعلا بها بيته عرشا لاميرته ، ومسرحا لابنه الصغير يلعب عليه دوره في تكسير كل شيء وتناديه مراياه الباقية من اجل ان تنكسر .

ومع ذلك فقد ازعم ان عدنان الراوي لم يرصد في هذه القصيدة الحلوة اكثر من جبن عاطفي تحت وطأة فراغ يشعر به كل اب وزوج ، مع ملاحظة انه خلط فيها عروضيا ، وذلك عندما جعلها من الكامل مصطنعا بعض زحافات الرجز ، ان لم يكن قد قصد الى ان تكون رجزا باستثناء المقطعين الرابع والخامس .

السهوب :

هذه القصيدة التي كتبها من دمشق فواز عيد نموذج جيد من نماذج الشعر الجديد . ولكن من الواضح ان الشاعر على ما قدم فيها من محاولات لتوطيد دعائم « الحقيقة » و « المعرفة » لم يسهم اسهاما فعالا في الكشف المنشود ، حتى حدود ان يكون الكشف صوفيا او ميتافيزيقيا. بل كانت الكثافة الشعرية تتأرجح عنده من حين الى حين ، بحيث عجزنا معه عن ان نصل الى حالة مستقرة من التلقي الشعري .

ويبدو لي ان فواز عيد لا يزال يبحث عن نفسه برغم ما ظفر به من نجاح في قصيدة « السهوب » وفي غيرها ، او لنقل يبدو انه لم يتوصل الى اسلوب خاص في التعبير الشعري الذي يمنحه الحرية لان يربط بين الحالات – المادية والروحية – الربط الذي يترجم عن التعقد المجتمعي دون ان يتعقد . فبينما نراه ينطلق – بعد استهلال تقليدي – وراء تلك البعيدة ليعلن تمرده على الذين يعجنون النرجس بالطين يقف فجأة عند العربي الذي يصدع الشمس بسيف وعباءة ، وذلك دون تحديد واضح للطريق الذي قطعه . حقا لا نلمح في حديثه زيفا وهو يتحدث عن زيف ولا نسمع صخبا وهو يومىء الى معركة المصير العربي ، الا انه يرفض ان يخفف العبء عن ادائه الفني ، بل يبدو كما لو كان يقصد الى ان يغلف صوره تغليفا اخطأه اكثر من شيء الا الايحاء الفضفاض .

وعلى الرغم من ذلك فالقصيدة بحق من احسن قصائد العدد ، ودلل فواز عيد بمضمونها الذي يرصد لانتظار الخلاص من العسف وانتظار للربيع الذي تسبقه عادة رياح الخماسين على انه الانسان العربي الرشيد، وكم ارجو ان يبعث رغم انف السهوب بريده الحلو الى الجنوب .

قصيدة شوشة :

هي دعوة الى النسيان ، وفي الوقت نفسه دعوة الى الالم والموت. ولست ادري الام يظل فاروق شوشة – المقيم في الكويت – مع احزانه التي لا مبرر لها على الاطلاق ، بل لست ادري متى يعفينا من الاجترارات العاطفية التي تكبو بنا في سلبية مطلقة . انا شخصيا احب غنائيات اي

شاعر بقلبه الذي يحب حتى التفاؤل ، ولكني لا احب غنائيات كل شاعر يحزن على القلب الذي ضيعه .

وتبدو القصيدة ـ على النقيض من كل اشعار عدد الاداب الماضي ـ واضحة تنساب في تيار هادىء بلا زخرفة ولا صناعة . ولكن التوافق الايقاعي فيها يحمل لنا رتابة تفضح ما وصلت اليه حالة الشاعر من خمود وجمود !

فهو يبدأ بالنغمة المألوفة التي تكشف عن وقع الالم .. دموع وصراخ ، ثم يتبع ذلك استسلام وخنوع وصبر بلا حدة ، في حين كان امامه نقلات التجربة من بدئها الى ان تصير المحاجر رؤى واسرارا ، الى ان تكون النهاية قبض الريح فقط .. اقول كانت امامه هذه كلها مثارا لايقاعات مفاجئة تزيل عن القصيدة رتابتها ! والعجيب انه يعود من حيث بدأ بعبارات اخرى ، دون ان يخلصها من ظلالها الاولى ، بل يأبى الا ان يكرر الالفاظ نفسها التي ورطته في المسارب التي قد يلتقي فيها مع اخر او اخرين .

ولغة فاروق شوشة ـ وهي ترتبط الى حد بعيد بلغة عدنان الراوي ـ من النوع الذي يقصد الى الصورة الفنية من اقرب سبيل ، وحتى رموزها لا تخرج عن التشبيهات والاستعارات التي دارت من قبل في اغلب القصائد التقليدية . خذ مثلا قوله « تعود لتمسح الهدب الكسيح » وقوله « سترجع دونما ظفر فقد دميت اظافرنا » وقوله « لعل مأتم الاحزان تمنح بأسنا مأوى » وخذ ما تريد من عبارات ، فانها لا تشكل الشاعر الذي يتفرد بشيء ما .. بشخصية تنم على استقلال حقيقي !

ومع ذلك فكل صورة ـ اعترف ـ تضيف اسى الى الاحساس بالفجيعة الهامدة والتخدير المميت . وندرك على العموم ان فاروق شوشة عندما يتحدث عن موت قلبه ، انما يتحدث عن مرارة هي في اعماقه ولكنها لا تخرج الا في هذه الصورة التي تبدأ بالاشارة الى النهاية ، ثم يعاد ذكر النهاية مرة ومرة ومرة .

مكتبة انطوان

فرع شارع الامير بشير ـ بيروت

تقدم

بمناسبة الامتحانات المدرسية

اضخم مجموعة

من كتب الامتحانات

بمختلف اللغات

بين قصيدتين :

واصل وثبا الى جيلي عبد الرحمن ، وهو صوت سوداني تدرب في مصر وغنى في موسكو للتغرب والتفجع . ولقد كنا نرى لجيلي وهو في القاهرة اشياء عن الغربة فنربطها بتفكيره في الاهل ، وكان مع ذلك سائرا على نحو ما في فلك الذين جعلوها مظهر احتجاج واعلان خصام . ولقد ظل يلح عليها في اغلب قصائده الاخيرة ، ولكن داخل المجال نفسه الذي لم يتعب من السير فيه ، فلم يخرج قط الى الصعيد الانساني الذي يستشعر الفقد حتى وهو بين الاهلين ، بمعنى ان جيلي ظل يريد شيئا وتعبيره الفني كان يدفعه الى شيء اخر .

وفي قصيدته « العائد » يضيف الى موضوعه الاثير تجربة الموت ـ والموت من الموضوعات الكبيرة التي تشغل اعظم حيز في الشعر الجديد ـ غير انه لم يستطع ان يودعه الا مغزى هزيلا ، وظل الموت عنده نهاية حياة عادية جدا . اما الظلال التي احاط بها عملية « التشييع » فترتبط بدورها بصور الاسى العادية ، ومن ثم لا يمكن ان نزعم انه اضاف الى تجربة التغرب شيئا ذا بال .

ولكننا ونحن نحس ان الشاعر مضيع فعلا وانه لا يملك الا ان يقول ما قال ، نراه يصدر عن استسلام مبعثه تقديره عجز الانسان ازاء الموت ذلك التقدير الشوقي ، بل المسلم الخالص :

من مات يا احبتي عليه رحمة الاله
عزاؤنا المكتوب في الجباه
ونظرة كسيرة في غربة الحياه
وعودة اسيانة لم يحتضنها الفرح

ومن هنا تكون الغربة كالموت ، ويكون التشييع كالعودة ، استنفادا هادئا الى ان يفتر الاحساس بحيث لا يملك الشاعر الا ان يقول في الختام :

غرباء نحن ويلتاه مثلما
يود ذلك الشقي في البعيد ينزح !

وتذكرنا القصيدة بعد هذا بقصيدة اخرى في العدد نفسه بعنوان « الراحل » كتبها من قطر الشاعر حسن النجمي . تذكرنا هذه بتلك من حيث ان الموضوع واحد هو الموت والغربة ، او الموت في الغربة . وفي رأيي ان درامية الرحلة التي بدأ بها النجمي بالاضافة الى تلك السخرية التي ختم بها لمن الاشياء التي صعدت بالشاعر الى عليين ، وكانت تساؤلاته المتساوقة مع الحدث تشدنا اليه كي تجعلنا نقول : هذه هي القصيدة الثانية ان لم تكن الاولى بلا منازع !

وقصيدتان من مصر :

الاولى لمحمد عفيفي مطر باسم « ليلة ميلاد » والثانية لعبد العظيم ناجي « اغنية خرافية » وبقدر معرفتي لمطر اجهل كل شيء عن عبد العظيم ناجي وان كنت اعجبت بقصيدته ايما اعجاب .

« ليلة الميلاد » لا تقدم شيئا الا انها هدية لسعيد الجداوي ، والا انها كان من الممكن ان تكون ابنة غير شرعية لقصيدة اليوت «اغنية العاشق بروفرك » او قصيدته الاخرى « نشيد في ليلة عاصفة » من بعض النواحي لو تعمق اسلوب الشاعر الانكليزي واستسلم لمرارات السخرية دون ان يهتف « آ ... مساء الخير » .

ملحوظة : الم يكن من الافضل لو قال « يا مساء الخير » كما نقولها في قعداتنا الخاصة ؟

واما « اغنية خرافية » فاكذب لو قلت انني فهمتها كل الفهم ، ولكنني اكذب ايضا لو لم اقل انني اخذت بغلافها المضبب . وان قصيدة فيها البيوت زاكمات الحجر والشمس تنكح ضلع الربيع وطيور العاج تغمس منقارها في الافق والعظاءة تبول فوق جبين القمر والقدر بعد ذلك او قبل ذلك يموت ، اقول قصيدة فيها كل ذلك على ما في بعضه من سماجة لعمل يلفت ، على الاقل حتى يجعلنا نسأل : ما هذا الذي يقال؟

ولقد تبين لي ان عبد العظيم يعرض لتجربة الموت وان الميت صديقة

عرفها الشاعر قبل ان يصرعها القدر ، وكانت تعيش عيشة خرافيـــة متدفقة تدفق القوة والشباب . ثم يتبع ذلك انفعال مدمـــر حين يدرك الشاعر ان التي كان يجب ان يشاركها الربيع يطلع عليها الليل المخيف

ولكن سربا من البوم ضخم العيون
اناخ على تلعة في جدار السماء
فخدش وجه القمـر .
وخدش وجه القدر
فمـات القـدر

لعله قدرها هي ، وهو قدر خرافي ايضا كان قـــد هيأ للراحلة بيناوثني الارائك والاقنية ، الا ان الليل المخيف عندما هوم وهوم اسرع فنقلها الى النعش الطري الكفن ثم الى مثواها الاخير . ويتحطم الايقـاع فجأة بعد ان يعود المشيعون يجدون اقدامهم او اشلاءهم ، فترى الصحاب يجتمعون على الطعام والشراب ، ليواصلوا ما انقطع ، وهذه هي الحيـاة .. استمرار واستمرار !

ثـم مـــاذا :

ويبقى في العدد « خمسة اشياء صغيرة » للشاعر العراقي عبـــد الجبار عباس وقصيدة « اللقالق العائدة » التي كتبها من موسكو حسب الشيخ جعفر . وتأخيري للقصيدتين لا يعني انهما اسوأ مـــا في عدد الاداب ، وانما يعني انهما بعض مثال للصعوبة التـــي يواجهها قارىء الشعر الجديد دائما .

والشاعران في رأيي ـ عبد الجبار عباس وحسب الشيخ جعفر ـ قادران على العطاء ، ولكن تعبيرهما اتهام لشاعريتهما . ربمـــا لضعف النسيج الفكري ، وربما لتمزق التجربة ، وربما لدخولهما آفاق الذات بفردية يائسة ، وربما لاشياء اخرى يعجز الاطار الحضاري ـ عندهما ـ عن استيعابها .

ولقد يمكن ان اقول ان عبد الجبار يعبر عن الخيبة ، او عن فشل العصر . ولكن النموذج الذي قدمه ـ فضلا عن انه يكرر نفسه فـــي قصائد مختلفة ـ لم يكن من التماسك بحيث يتضح فيه المضمون بسهولة. واما حسب الشيخ فتورط في اكثر مما تورط فيه عبد الجبار ، والتقى على الصعيد الممهد مع من يغنون الحنين !

ان المنبع المشترك لهاتين القصيدتين هو التقليد ، تقليد شاعر مـا او تقليد شاعرية معينة . فبينما نرى صاحب « خمسة اشياء صغيرة » يبدأ بالمعاناة الفنية كما يبدؤها صلاح عبد الصبور ـ وقد يتفتح علـى تعبيراته الخاصة ـ ثم ينطلق وراء نموذجين من نماذج « اليوم » الـذي يستفتح بقطة عمياء ، نرى صاحب اللقالق مستهوى بالانسياب العاطفي الذي ينبثق عند الحنائين ويفور عندهم ايضا . وكانت صوره المتنوعة في الظاهر لا تخرج عن القرية المهجورة البعيدة التي تغرق في المـــاء وتنسى في النخل ويظللها البردى ويعوج عليها اللقلق الدرويش ويفوح منها حصاد الارض والاكواخ .

دائما هذه الموتيفات ، ولا ابتكار الا حسن الاداء عند الشاعرين . وربما استطعنا بشيء من الاقتسار ان نزعم ان عبد الجبار في المقطعين الرابع والخامس من قصيدته استقطب الحياة في صورتين تمثلان الخارج والداخل لاي نموذج انساني ، وربما استطعنا بالاقتسار نفسه ان نقـول ان حسب الشيخ قصد ان يكشف عن ان الانسان العربي لا يمكـــن ان ينسى في مهجره ارضه وان بعد العهد بها ، او ربما قلنا ان المثاليـــة الماركسية لم تنزع من صدره تعلقه بالحس القومي ـ الذي ارتبط بيئيـا بقريته المهجورة ـ غير انه من المهم ان نسلم بقصور الشاعرين عـــن ان يقدما شيئا واضحا عن مأساة الانسان الحقيقية .

ومع كل هذا فكم اود ان اكون مخطئا في تقييمي ، وعذري ان الشعر الجديد ليس في متناول احد يدركه في اي وقت وكيفما شاء !

القاهـرة — احمد كمال زكي

الأبحـــاث

بقلم عبد الفتاح الديدي

***

اعجبتني مقالة الاستاذ مطاع صفدي في قضية الوحدة والانفصال. وزاد من اعجابي بها انه اشاع منذ بداية هذه المقالة شعورا بأهميـــة الاحساس الثوري التقدمي ازاء مشكلة الوحدة . فقد اشار الـــى ان هدف الوحدة يظل هو نفسه اللحمة الاساسية لاي تكوين تقدمي ينجـم عن نضج الوعي السياسي من جهة وتحتمه التطورات التاريخية مـــن جهـة اخرى .

ولكنني اخالفه في قوله بأن الماضي له حقيقته المطلقة التـــي لا سلطان لاي ارادة ثورية عليها مهما بلغت ثوريتها وصلابتها . كما انني اخالفه ايضا في قوله بأن هدف الوحدة العربية ضمن نطاق هذا الصراع المباشر بين الغزو الحضاري وراء جنود الاحتلال وبين الانكماش الغريزي لانماط الحياة العربية كان اذن نداء غريزيا هو الاخر نحو المحافظة علـى كل ما جعل الوجود العربي يستمر فيه ولو ضمن شكله الابتدائي .

فايمان الاستاذ مطاع صفدي بأن الماضي يستحيل الـــى حقيقة مطلقة امام الارادات الثورية يقفل الابواب امام التحولات الكبرى التـي تنشأ في هذه المنطقة . كذلك تصدر مثل هذه الفكرة عن عدم ايمـــان بالانسان .

ونعود فنوضح هذه النقطة الاولى بشأن مفهوم التاريخ فنقول انـه لا ينبغي بحال من الاحوال فقدان الامل من قدرة الجموع البشرية علـى ازالة الرواسب المتحكمة في مصيرها . وبعد ان تخلص العرب مـــن الاستعمار والحكومات الطبقية يمكن ان تسيطر الاجهزة الوحدوية فـي الاعلام والارشاد والثقافة على شؤون الجماهير في البيئات العربيـــة بحيث تعيد تثقيفها على نحو يؤهلها للتطور السريع .

حدث مثل هذا في الولايات المتحدة الامريكية بعد الحرب العالمية الاولى كما حدث مثله في المانيا واليابان بعد الحرب العالمية الثانية . واعادة تثقيف الجماعات البشرية من شأنه ان يذلل العقبات امـــام المفهومات الجديدة وحياة المدينة الصناعية في العصر الحديث . واهـم ما نحتاج اليه بطبيعة الحال هو تقريب المعايير في الفهم والتذوق بـين الشعوب العربية وتهيئة الاذهان في شتى البقـــاع لاستقبال العصب الاساسي في الوضع الثوري العربي .

وهنا يكمن الامل في التحولات السريعة داخل الاطـــر الشعبيـــة الجماهيرية . ونستطيع ان نقتلع الجذور الفاسدة التي غرسها الحكـام والمستعمرون في السنوات الماضية مـــن صدور الناس . فيفهمـــون ويدركون ويتأملون حقيقة مواقفهم ويعملون من ثم على الاستجابة السريعة لعوامل النهوض بالجماعات العربية .

والايمان بالانسان هو مصدر التطلع الى تصويب الاوضاع بالنسبة الى حياتنا في مناطق الشرق الاوسط . فالانسان كائن مرن ذو قـدرة عجيبة على التغير والتشكل فـــي شتى الصور والقوالب . وحقيقـة الانسان هي التي تحثنا على الاستمساك بقواه المتجددة وهي التي تدفعنا الى الاحساس بأهمية انبثاقاته غير المتوارثة . ويستطيع الفرد الا يتقيد اطلاقا بما يمليه الماضي الغريزي او الماضي المتمثل في مجموعة الاحكـام والعادات . يستطيع الفرد ان يقضي على وهـــم الصيرورة الحتميـــة بالتجديد في اساليب استجاباته وبعدم التقيـــد بالرسوم والمعالـــم التقليدية . وقدرة الانسان على التشكل لا تقف عند حد ومرونته فـــي الملاءمة بين قواه واحتياجاته لا حصر لها .

اما النقطة الثانية الخاصة بأن انكماش الانماط العربية كان نـداء غريزيا من اجل التصويب نحو الهدف الاسمى من الوحدة فهي ايضا غير صحيحة . وقد استخلصنا نظرتنا هنا من نفس الكلام الذي قلناه

بشأن حرية الانسان ازاء الزمن والتاريخ . فالانسان حر ايضا ازاء الغرائز والعادات . وهو لذلك امكانية مستمرة متفتحة على جميع الوان التجربة والخبرات . فالضرورات التاريخية والغريزية لها اهميتها في تصور الانسان للاحداث وفي اطمئنانه الى طبيعة الاحداث . انه يحب ان يصوغ الاشكال العامة للاحداث على النحو الذي يستريح اليه . ولكن لا شك ان جوهره قادر على الانفلات من الاوضاع وقادر على مواجهة المستلزمات باسلوب حديث .

لذلك اهتممنا بالاشارة الى ان حقيقة الصراع للابقاء على هدف الوحدة نصب أعين العرب دائما كان مصدرها على مستوى عقائدي لا على مستوى غرائزي . ونقول على مستوى عقائدي لان الغرائز كانت قادرة على أن تحيد بالجماهير في مناطق الشرق الاوسط الى صنوف الاستفادة والكسب والانتفاع بالغزو الحضاري وراء جنود الاحتلال. فمن الاصوب أن ندفعهم الغرائز الى الالتفات الى اهمية الانتفاع بما يقدمه هذا الغزو من فوائد . ولكن الجماهير ظلت تعاني العنت والفقر والجوع للاستمساك بعروة الاتحادات العربية لاسباب عقائدية حقيقية مرتبطة بكيان الانسان وقيمته وكرامته في هذه البلاد . لذلك قاومت غزو حضارات المستعمرين على امل الحرص على مساندة ابناء العقائد الواحدة بعضهم لبعض في احلك الظروف .

من هذا نرى اننا نؤمن بقدرة الانسان وملكاته في التطور والتبلور كما اننا نعتقد انه حرص على تحقيق هدف الوحدة بدافع من العقيدة والتماسك الروحي .

***

واذا انتقلنا الى الندوة التي ناقش فيها الدكتور عبد القادر القط والدكتور رشاد رشدي والاستاذ صلاح عبد الصبور ازمة الشعر العربي المعاصر نجد ثمة اتفاقا على ان من اسباب عدم الاقبال على الشعر اليوم ميل النقاد الى اهمال الشعر وابتعادهم عن الشرح والتفسير اللازمين لتشجيع القراء على تذوق القصائد واستشعار جمالها وقيمها . النقاد مسئولون عن عدم اقبال الناس على قراءة الشعر . فبدلا من ان يكرسوا جهودهم لعمليات التحليل والتفسير والابانة التي يبرزون بها دلالات الشعر ومزاياه وجماله يوقفون جهودهم على سرد النظريات التي تمس الشعر من بعيد ولا تنفذ الى اغواره .

المشكلة اذن في رأي الدكتور عبد القادر القط تتمثل في انصراف الجمهور عن تذوق الشعر . وهي قضية يوافقه عليها الدكتور رشاد رشدي ولكنه يضيف اليها عنصرا جديدا وهو ان المسئول عن ذلك الى حد كبير هم النقاد والمثقفون والحاملون لمشاعل الثقافة او مشاعل الدعاية للثقافة من الذين يحاولون محاربة الشعر الحديث أي الاصوات التي تنطلق اليوم لمحاربة هذا الشعر . وهو في رأيه شعر نابع من مزاج وعقلية مركبة تركيبا معينا مما يتماشى مع مزاج الجمهور ومزاج العصر الحديث حتى عندنا في مصر . فلا شك عنده من ان هذه المهاجمة تعوق تقدم هذا الشعر وتحول دون انتشاره . وما يزال الكثير من شعرائنا او ممن يمارسون الشعر .. ما زالوا يكتبون بالشعر التقليدي وهو شعر بطبيعة مزاجه يصرف عنه القارىء المعاصر ذا التركيبة المزاجية المعقدة تعقد الحياة التي يحياها . فاذا صمم كثير من الشعراء على المضي في الكتابة وفق هذه العقلية وبهذا الشكل التقليدي الذي يقلد اكثر مما يتبع تقليدا فنيا معينا يقع اللوم ولا شك على الشعراء انفسهم .

ويكتشف الاستاذ صلاح عبد الصبور وجها اخر للمشكلة فيقول ان الشعر تثقله دراسات البلاغيين العرب القدامى . ويضيف الى ذلك ان كتب التعليم قد نجحت في بث البغضاء للغة في نفوس طلبة المدارس ولكل ما يتصل باللغة . فازمة المتلقي في الحقيقة هي ازمة اللغة وقد صادفته في المدرسة . وبالتالي فمشكلة الشعر لن تحل الا اذا حلت مشكلة الكتاب العربي . بعد ذلك يمكن ان نلتقي عند مفهوم واحد للشعر . وفي الوقت نفسه فان النقد يحتاج الى دراسات اخرى من القيمة ـ القيمة المجددة ـ قيمة اللفظ والخيال وغير ذلك مما لا يستقيم الشعر بدونه .

ويأتي في غضون الندوة كلام الدكتور القط عن الناحية الميتافيزيقية في الشعر . فيقول انه يخيل اليه ان الغموض في الرمز المغلق الغالب عليه والذي يحتذي الشعر الاوربي الذي يمثل حضارة غير حضارتنا او مرحلة حضارية غير المرحلة التي نمر بها ... يخيل اليه ـ هكذا يقول الدكتور القط ـ ان مثل هذا الشعر يحول دون انتشاره ويجعل الناس يقفون منه موقف الجديد او موقف الشك .

وينفي الاستاذ صلاح عبد الصبور ان هذا الشعر تقليد للغرب . ويقول انه يميل الى الاعتقاد بان هذا رد فعل للوضوح الزائد الذي يتسم به الشعر العربي .

ولنا تعليق بسيط على هذه الاراء . فهي وان كانت قد مست جوهر الاشكالات المتصلة بفنون الشعر اغفلت امرين غاية في الاهمية وهما اولا صلة الشعر بالمدنية وخاصة المدنية الصناعية . وثانيا صلة الشعر بالفلسفة .

واعتقد ان حل الاشكالات في الشعر المعاصر لن ينبع الا من دراسة هذين الجانبين الهامين . اولا من المعروف ان النزعة الرومانتيكية قد زالت دواعيها كما انها لن تتجدد على نحو ما جاءت بصورتها الاولى . كذلك ينبغي ان نزول روح البداوة والفطرة في اساليبنا الشعرية المعاصرة . ثم من الضروري بعد ذلك ان ياتي الشعر تعبيرا عن مدنيات حديثة مخالفة لكل المدنيات السالفة . وسان سيمون هو الذي وضع فكرة الضمير المتمدن في عصر الصناعة . وجاء تعبيره ذاك مناقضا لفكرة الروح الجميلة عند اشليجل الناقد الالماني وفكرة الحيال الجامح عند نوفاليس .

وقد وضع الدكتور القط والدكتور رشاد رشدي والاستاذ صلاح عبد الصبور ايديهم على الطبيعة المركبة والمزاج المعقد للقراء في حياتنا العلمية الحديثة ولكنهم لم يتجاوزوا ذلك الى الكشف عن مقومات المدنية في العصر الحديث . وهذه المقومات هي التي يلزم انعكاسها على صفحة النظم الشعري بحيث تستهوي القارىء وتمده بشحنات شعورية مناسبة . والشعر الذي يتجاوب مع هذه الفترة هو ذلك الذي يستمد عناصره التجديدية من المعاني المتفاة ومن الحضارة المادية . وليس معنى هذا ان الشعر ملزم بمجاراة عصر الالة بحيث يصف المخترعات الحديثة او العلوم السائدة . ان معنى ذلك هو انه من الضروري ان يصل الشاعر في ترقية مشاعره وعواطفه الى حد ان تصبح في مستوى مشاعر وعواطف الانسان الذي اخضعته المدنية والعلوم لمقاييسها . على الشاعر ان يمر بتجاربه الشعورية الى كل مستويات التعقيد الصناعي وكل مستويات الحياة الاجتماعية في ظروف المدنية السائدة حتى يسيطر على وجدان قارئه .

ونقول مرة اخرى انه ليس من الضروري ان يرد في شعر الشاعر ما يشير الى الصناعة والالات والعلوم ولكن من الضروري أن يكون قد اكتسب خبرات في هذه المجالات بحيث تخلص مشاعره من الطفولة والبكارة والانفعال الفج . وليس ما يأسر القارىء للشعر هو ورود كلمات ضخمة وتعبيرات مباشرة للطابع العصري في الحياة والفهم والتذوق وانما يأسره ولا شك وجود ما ينم عن تجارب حقيقية في حقل التفكير المعاصر وما يشير الى انه قد تخطى وتجاوز مرحلة الانفعال السطحي البريء .

وهذا هو ما ينقلنا الى الكلام عن النقطة الثانية وهي صلة الشعر بالفلسفة . فالشعر والفلسفة توأمان يولدان معا ويموتان معا ولكنهما يعيشان عيشة منفصلة . تنبع الفلسفة من حيث ينبع الشعر ويلتقيان عند مصب واحد ولكنهما يشقان طريقين مختلفين متباعدين . فالفلسفة تستخدم المنطق والمقولات والاحكام بينما يستخدم الشعر التصاوير والفن والتساؤل . ومهمة الشعر هي مهمة الفلسفة ولكنهما يتبعان منهجين مختلفين واسلوبين متباينين . ولكن الشاعر الذي لا يعطي نهايات الفلسفة في اشواطه وتحليقاته يظل بغير قدرة على النفاذ الى قلب القارىء ووجدانه . وهنا يلزم ان نذكر كذلك انه ليس ضروريا استخدام الفاظ الفلاسفة او الفازهم في الشعر كيما يصير شعرا

ناجحا . كل ما في الامر ان المطلوب من الشاعر ان يؤدي بالتصاوير ما يؤديه الفيلسوف بالمنطق واصول التفكير .

والعمق هنا ليس معناه التعمية وانما معناه ان تجربة الشاعر التي يتقدم بها الى قرائه تستحق العناية والاهتمام . ولا يقبل العصر الحديث تجربة السذج من الشعراء . لا شك ان بعض السذاجة يفوق عمق الفكر الفلسفي ولكن ذلك لا يظهر الا من عمق الاحساس الذي يعرضه الشاعر في ابياته . فاحساس الشاعر يكشف عن معدنه ويبين الاصيل من الزائف كما يبين الفروق بين الدلالات السطحية والدلالات العميقة ذات الفن الجميل النابض بالحياة والقوة .

***

واستمر في التعرض لنفس هذا الموضوع حين اشير الى مقال الدكتور احمد كمال زكي عن النموذج الجديد . فليس الامر كما يبدو مما سبق ان قلناه امر تغيير القوالب الادائية للشعر بقدر ما هو امر اهتمام بالثقافة الحقيقية للشاعر . فنحن وان ربطنا صلاح ـ ولعله اكثر المحدثين حفظا للاشعار القديمة ـ باغلب شعراء العربية ابتداء من المهلهل الجاهلي نحس في الوقت نفسه ـ كما يقول الدكتور احمد كمال زكي ـ بتطلعه المخلص الى تراث الغربيين . اذن فالدكتور احمد كمال زكي يتفق معنا في ان الاشكال الحقيقي بالنسبة الى الشعر هو ضرورة تغيير العقلية والثقافة اللتين يصدر عنهما الشاعر . ومعنى ذلك كما يقول هو نفسه ان يكون الشاعر مثقفا وان ينتقل بثقافته الى العصر الذي يعيش فيه . ويورد الدكتور زكي نصا من مقال نشره الاستاذ صلاح عبد الصبور في مجلة المجلة بعنوان « مختارات معاصرة في فهم الشعر ونقده » مؤداه ان الميزة التي يجنيها الشاعر من خبرته بادب لغته وادب اوروبا هي تكون حس تاريخي لديه . والحس التاريخي هو ان يعيش الانسان في الماضي ويشاهده .

ويأتي تقدير الدكتور زكي لشعر الاستاذ صلاح عبد الصبور من قدرته على ان يميز بين الفروق الصغيرة ومعاني الكلمات بحيث امكنه ان يتمثل تجارب الاخرين ـ ايا ما كانت جنسيتهم ـ وان يبلور بعد ذلك ادراكه الحدسي للجوهر الشكلي والعاطفي لموضوعاته . فالتأثير الذي يحدثه الاستاذ عبد الصبور باشعاره ونماذجه تأثير عفوي صادق قريب الى حد البساطة وان يكن ذكيا الى ابعد حد .

وهذه من اهم الصفات التي ينبغي توافرها في الشاعر كما سبق ان قلنا في احدى الفقرات المتقدمة . ويعود الدكتور زكي فيحدد ملامح الشاعرية في اعمال الاستاذ صلاح عبد الصبور فيقول انه عمد بعد عام ١٩٦١ الى المزاوجة بين الغنائية والتفكير مما صار يدل على انه يتجه الى الغناء بفكره . ولقد تنبه صلاح عبد الصبور الى ان السهولة ـ بل الابتذال احيانا ـ لا تفي بمتطلبات العمق الفكري ولا العنف الدرامي اللذين اصبح يقصدهما . ويكفي في رأي الدكتور زكي استعراض ما حفل به شعر الشاعر من اشارات الى الاساطير ضمن الرموز الشعبية والجنس والموت والرحلة حتى نكتشف المعاني الكبيرة التي تدل على ان صلاح عبد الصبور شاعر ذو موقف .

***

وفي مقال الاستاذ جلال مظهر بعنوان « مستشرقون تآمروا على الشرق » محاولة جادة للكشف عن مؤامرة الاستعمار التي كانت تهدف اول شيء الى اخفاء مآثر العرب وافضالهم على الحضارة وعلى اوربا والى تلطيخ تاريخهم بل واسمهم ايضا . لقد قاد هذه الحركة جماعة من المستشرقين عمد بعضهم الى الدس بين السطور ورجع بعضهم الى النظريات الشعوبية القديمة يحييها ويزكيها . وعمد بعض اخر الى نظريات غريبة تؤدي الى انكار كثير من المستكشفات العربية الصميمة بل الى محاولة انكار فضل العرب في ارساء قواعد علوم برمتها .

لقد قام مستشرقون يهدمون العرب ويكيلون لهم ويعملون جاهدين على محوهم ومحو اثارهم . ولكن اوربا في الوقت نفسه لم تعدم ان تخرج كتابا موضوعيين نبلاء الغرض لا تسمح لهم ضمائرهم ان ينساقوا في خضم هذا البحر الزاخر بالتضليل وتشويه الحقائق .

ويتنبه الاستاذ جلال مظهر في مقاله الى ان المخطيء في هذا الشأن هو العرب انفسهم الذين ينتظرون خدمات الغربيين لعلومهم ومعارفهم ولا يقدمون هم انفسهم الى العناية بحضاراتهم وتراثهم . فالعربي نفسه هو المخطيء اذ لا يحمل مسئولية فكره وعلومه وثقافته بنفسه ويتركها في ايدي الغربيين . هذا مع ان العبء الحقيقي ملقى على كتفيه هو وعليه ان يقوم بالدراسات التي تكشف عن المواقف الصحيحة المتصلة بتاريخنا . لذلك يقول الاستاذ جلال مظهر : وانها لحقيقة ذات بال ان احدا من العرب حتى الان لم يقم بدراسات تاريخية مفصلة مقارنة في هذا الموضوع كالدراسات التي قام بها نفر من مستشرقي اوروبا وعلى الاخص في اواخر القرن الثامن عشر وفي القرن التاسع عشر عندما انبروا يدافعون عن حضارة العرب وعن تاريخ العرب في وجه زملائهم الذين يعمدون الى تشويهه وتوسيخه . ولولا تلك الدراسات المستفيضة العميقة البالغة الاهمية لما استطعنا نحن الان ان نعرف شيئا كثيرا عن حقيقة تاريخ حضارتنا وامجاد ابائنا .

والمقال بعد هذا مليء بالامثلة التي تدل على مدى تغلل الدعايات الصهيونية داخل اروقة المعاهد والجامعات الاوربية . وهذا كله انذار لنا بضرورة الاقبال بانفسنا على دراسة تراثنا وعلى تقدير حضاراتنا السالفة ومقارنتها بكل المواقف الفكرية في البلاد الاخرى حتى تتبين حقائقها على النحو الذي لا يدع الفرصة لمن يقصد الدس والغمز والتشويه .

هذه مسئوليتنا وعلينا وحدنا حملها .

القاهرة — عبد الفتاح الديدي

المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع

٤٢ ـ ٤٤ شارع الملكي ـ الاحباس

الدار البيضاء ـ المغرب

دائما في خدمة الكتاب الفاضل

ورسول الثقافة العربية في المملكة المغربية

متعهد توزيع كتب دار الاداب اللبنانية

وقد وصلتنا اخيرا الكتب التالية :

سيرتي الذاتية ، لسارتر	ترجمة الدكتور سهيل ادريس
قوة الاشياء ، لسيمون دوبوفوار	ترجمة عايدة مطرجي ادريس
لا بحر في بيروت	قصص لغادة السمان
عاشق من افريقيا	شعر لمحمد الفيتوري
احلام الفارس القديم	شعر لصلاح عبد الصبور
ثورة الفقراء	تأليف رجاء النقاش
حتى يبقى العشب اخضر	قصص لاديب نحوي
عاصفة على السكر (ط. جديدة)	لسارتر ـ ترجمة عايدة م. ادريس
انا وسارتر والحياة (ط. جديدة)	لسيمون دوبوفوار ترجمة عايدة م. ادريس